وهكذا تعرَّفْنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً هو أمر ثابتٌ له قَبْل أنْ يُوجَد شيء ، وأمرٌ قد ثبتَ له بعد الملائكة ، وثبتَ له بعد وجود السماوات والأرض . وهو أمر طلب الله من العبد المُخيَّر أن يفعله ؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قسْم آمن وسبَّح ، وقِسْم لم يُسبِّح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشْركون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ[1] مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

وساعة نقرأ قوله ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ فالكلمة تُوحي وتُوضِّح أن هناك علُواً يمكن أن ينزلَ منه شيء على أسفل . والمَثلُ الذى أُحبّ أنْ أضربه هنا لأوضحَ هذا الأمر هو قَوْل الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : أقبلوا لتسمعوا منِّى التكليفَ الذى نزل لكم مِمَّنْ هو أعلى منكم ، ولا تظلُّوا فى حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تَساموا وخُذوا الأمر ممَّنْ لا هَوىً له فى أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فَهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خَلْق غيبىّ آمنَّا به ؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكُلّ ما غاب عن الذِّهْن

(١) بالروح . أى : بالوحى وهو النبوة . وقيل : أرواح الخلق . قاله مجاهد ، لا ينزل ملك وإلا ومعه روح . وقيل : بالرحمة . قاله الحسن وقتادة وقيل : بالهداية ، لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح والأبدان . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٩١] .

ودليله السماع ممَّنْ تثق بصدقه ، وقد أبلغنا ﷺ ما نزلَ به القرآن وأنبأنا بوجود الملائكة ، وأن الحق سبحانه قد خلقهم ؛ ورغم أننا لا نراهم إلا أننا نُصدِّق ما جاء به البلاغ عن الحق من الصادق الصَّدُوق محمد ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. ②﴾

[النحل]

فنحن نعلم أنه لا يمكن أنْ ينزلَ شيءٌ من أعلى إلى الأدْنى إلا بواسطة المُقربات .

وقد اختار الحق سبحانه ملكاً[1] من الملائكة لِيُبلِّغ رُسُله بالوحي من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه :

﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ㉖ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ㉗﴾

[الأنبياء]

ويقول في آية أخرى :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ⑥﴾ [التحريم]

وهم من نور ، ولا تصيبهم الأغيار ، ولا شهوةَ لهم فلا يتناكحون ولا يتناسلون ؛ وهم أقربُ إلى الصَّفَاء . وهم مَنْ يُمكنهم التلقِّي من الأعلى ويبلغون الأدْنى .

---

(١) المقصود هنا جبريل عليه السلام . قال تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشعراء] قال ابن كثير في تفسيره (٢/٣٤٧) : « هو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف ، وهذا مما لا نزاع فيه » .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن القرآن :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ .. (٢) ﴾ [النحل]

والآية الإجمالية التى تشرح ذلك هو قَوْلُ الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي[1] مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) ﴾ [الحج]

أى : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقّى منه ليُعْطوا المصطفين من الناس ؛ ليُبلّغ هؤلاء المُصْطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العُلْويات العالية لا يملك الكائن الأدْنى طاقة ليتحمّل ما تتنزّل به الأمور العُلْوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أنْ شبَّهْت ذلك بالمُحَول الذى نستخدمه فى الكهرباء لينقل من الطاقة العالية إلى الأدْنى من المصابيح ، وكُلّنا يعلم ما حدث للرسول ﷺ حين تلقّى الوحى عبر جبريل عليه السلام « فَضمَّنى حتى بلغ منِّى الجهد » وتفصد[2] جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول « زملونى زملونى » و « دثرونى دثرونى »[3] .

---

(١) اصطفاه : اختاره وآثره وفضّله . قال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

(٢) تفصد عرقاً : سال عرقاً . [لسان العرب - مادة : فصد] .

(٣) زمله بالثوب : لفّه به فتزمل به وتلفف به . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) ﴾ [المزمل] نداء يذكر الرسول بقوله « زملونى » عند بدء الوحى ، ذكره الله تعالى للإيناس والملاطفة ، وفيه توجيه إلى ترك النوم وترك الراحة والقيام بواجبات الرسالة . [القاموس القويم ١/ ٢٩٠] . وحديث بدء الوحى أخرجه البخارى فى كتاب « بدء الوحى » من صحيحه « حديث رقم ٣ » من حديث عائشة رضى الله عنها .

ذلك أن طاقةً علْوية نزلت على طاقة بشـرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هى طاقة مُصْطفاة . ثم يألف الرسول الوحى وتخفّ عنه مثْل تلك الأعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ[1] ۝٢ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح]

ثم يفتر[2] الوحى لبعض من الوقت لدرجة أن النبى ﷺ يشتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحى وهو مَنْ قال « دثّرونى دثّرونى » ؟

لقد كان فُتور الوحى بسبب أنْ يتعوّد محمد ﷺ على متاعب نُزول الملَك ؛ فتزولُ متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .

وقال بعض من الأغبياء : « إن ربَّ محمد قد قلاه[3] » .

فينزل قوله سبحانه :

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى]

---

(١) الوزر : همّك الذى أتعبك ، وهو همّ البحث عن الدين الحق . أو : يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حبك لله . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] .

(٢) الفترة : الانكسار والضعف . فتر الشيء : سكن بعد حدّة ولان بعد شدة . والفتر : الضعف . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفى الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

(٣) قلى فلاناً يقليه : أبغضه وجفاه . قال تعالى : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] ما أبغضك ولا جفاك . [القاموس القويم ٢/١٣٢] . وعن جندب بن عبدالله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

وكلمة الروح وردتْ فى القرآن بمعَانٍ متعددة ، فهى مرّة الروح التى بها الحياة فى المادة ليحدث بها الحسّ والحركة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

وهذا النفْخ فى المادة يحدثُ للمؤمن والكافر ، وهناك رُوح أُخْرى تعطى حياةً أعلى من الحياة الموقوتة :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

إذن : فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أرْقى من الحياة التى نعيش بها ونتحرَّك على الأرض . وهكذا تكون هناك رُوحان لا روحٌ واحدة ؛ رُوح للحسّ والحركة ؛ وروح تُعطى القيم التى تقودنا إلى حياة أخرى أرْقَى من الحياة التى نحياها ؛ حياةٌ لا فناءَ فيها .

ولذلك يُسمِّى الحق سبحانه القرآن روحاً ؛ فيقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى]

ويُسمِّى الحق سبحانه الملَك الذى نزل بالقرآن روحاً ، فيقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾

[الشعراء]

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياةً أرْقى ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

أى : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التى لا موْتَ فيها ولا خَوْفَ أنْ تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمةُ .

وهنا يُبلِّغنا سبحانه أن القرآن نزل مع الملائكة :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ .. (٢) ﴾ [النحل]

أى : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه ، ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..(١١) ﴾ [الرعد]

والسَّطْحيون لا يلتفتون إلى أنَّ معنى :

﴿ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

هنا تعنى أنهم يحفظُونه بأمر من الله .

والأمر هـنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خـواطرنا عنها ـ هـو ما جاء فى الآية الأولى منها :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]

وهذا الأمـر هو نتـيجـة لِمَـا يشـاؤه الله من حـياة للناس على الأرض ، ونعلم أن الحق سـبحانـه له أوامر مُتـعدِّدة يجـمعـها إبراز المعدوم إلى الوجود ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾ [النحل]

---

(١) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعمالهم . أو : المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٣٩] .

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له : كُنْ فيكون ، وإذا أراد منهجاً ؛ فهو يُنزله ، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعةً ؛ فهو القائل ﴿ أتَى أمْرُ الله ﴾ .

وهكذا نفهم أن معنى ﴿ أمْر الله ﴾ هو ﴿ كُنْ فيكون ﴾ أى : إخراج المعدوم إلى حَيِّز الوجود ؛ سَواء أكان معدوماً جزئياً ، أو معدوماً كلياً ، أو معدوماً أزلياً .

وكُلّ ذلك اسمه أمر ، ولحظةَ أنْ يأمرَ الله ؛ فنحن نَثِقُ أن مأمور الله يبرز ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] (٢)﴾ [الانشقاق]

أى : أنها لم تسمع الأمر فقط ؛ بل نفّذتْه فَوْر صدوره ؛ دون أدْنى ذرة من تخلُّف ، فأمْر الله يُنفّذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه ، أما أمْر البشر فهو عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، وعُرْضَة لأنْ يُعصَى .

وسبحانه يُنزّل الملائكة بالرُّوح على مَنْ يشاء ليُنذروا ؛ ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالبشارة هنا ؛ لأن الحديث مُوجّه للكفار فى قوله :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل]

ونزَّه ذاته قائلاً :

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾ [النحل]

أو : أن الحق يُنبِّه رسوله ، إنْ دخلتَ عليهم فَفسِّر لهم مُبْهَم ما لا يعرفون . وهم لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الأعلم بمَنْ يصطفى .

---

(١) حَقّ له : ثبت له . حُقّت : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٤] .

ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتمّ بمواصفات الحق سبحانه ؛ فهو القائل :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وعُلم أن الكافرين قد قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وقال الحق سبحانه فى ردِّه عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فإذا كان الحق سبحانه قد قَسَّم بين الخَلْق أرزاقهم فى معيشتهم المادية ؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بَعْض درجات ؛ وهو مَنْ يجعل المرفوعَ مخفوضاً ؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتى هؤلاء فى الأمور القِيَمِيّة المُتعلّقة بالروح وبالمنهج ، ويحاولون التعديل على الله ؛ ويقولون « نريد فلاناً ولا نريد فلاناً » ؟

أو : أن الحق سبحانه يوضّح لرسوله : بعد أنْ شرحتَ لهؤلاء أمر الوحى ، فعليك أنْ تُبلّغهم كلمة الله :

﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) ﴾ [النحل]

وما دام لا يوجد إلهٌ آخر فعلى الرسول أن يُسْدِى لهم النصيحة ؛ بأن يقصروا على أنفسهم حَيْرة البحث عن إله ، ويُوضّح لهم أنْ لا إله إلا هو ؛ وعليهم أنْ يتقوه .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٦) : « يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقتادة والسدى وابن زيد . (واختلفوا فى المقصود بهذين الرجلين) . والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

وفى هـذا حنان مـن الحق عـلى الخَـلْق ، وهو الـحق الذى مـنع الكائنات التى تعجبتْ ورفضتْ كُـفْر بَعْضٍ من البشر بالله ؛ وطلبتْ أن تنتقمَ من الإنسان ، وقال لهم : « لو خلقتمـوهم لرحمتموهم ، دَعُونى وخَلْقى ؛ إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبُهم ؛ وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل]

هو جماعُ عقائد السماء للأرض ؛ وجـماعُ التعبُّداتِ التى طلبها الله من خَلْقه ليُنظِّم لهم حركة الحياة مُتساندةً لا مُتعاندةً .

فكان :

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل]

هى تفـسيـرٌ لمَـا أنزله الله على الملائكـة من الرُّوح التى قُلْنا من قـبل : إنها الروح الثـانية التى يَجـىء بها الوَحْى ؛ وتحـملُ منهجَ الله ليضـمن للمُعتنق حيـاة لا يزول نَعيمـها ولا المُتنعِّم بها ؛ وهى غَـيْر الروح الأولى التى إذا نفـخها الحق فـى الإنسـان ، فالحـياة تدبُّ فـيه حركةً وحِساً ولكنها إلى الفناء .

وكـان الحق سبـحانه من رحمتـه بخَلْقه أنْ أنزلَ لهم المنهج الذى يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أَسْرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أن حذرهم من المصير السيىء الذى ينتظر مَنْ يكفر به ؛ ومثل هذا التحذير لا يصـدر إلا مِنْ مُحِبٍّ ؛ فسبحانه يُحب خَلْقه ، ويُحب منهم أنْ يكونوا إليه مـخلصين مؤمنين ، ويحب لهم أَنْ ينعموا فى آخرة لا أسبابَ فيها ؛ لأنهم سيعيشون فيها بكلمة « كُنْ » من المُسبِّب .

فإذا قال لهم ﴿أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا .. ۝٢﴾ [النحل] فهو يُوضّح أنه لا إله غيره ، فلا تشركوا بى شيئاً ، ولا تكذبوا الرسل وعليكم بتطبيق منهجى الذى يُنظّم حياتكم وأُجازِى عليه فى الآخرة .

وإياكم أنْ تغترُّوا بأنّى خلقتُ الأسباب مُسخرة لكم ؛ فأنا أستطيع أن أقبض هذه الأسباب ؛ فقد أردتُ الدنيا بلاءً واختباراً ؛ وفى الآخرة لا سُلْطان للأسباب أبداً :

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر]

وظاهر الأمر أن المُلْك لله فى الآخرة ، والحقيقة أن المُلْك لله دائماً فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ولكنه شاء أنْ يجعلَ الأسباب ـ المخلوقة بمشيئته ـ تستجيب للإنسان ؛ فإياك أنْ تظنَّ أنك أصبحتَ قادراً ؛ فأنت فى الحياة تملك أشياء ، ويملكك مَلِك أو حاكم مثلك ؛ فسُنّة الكون أنْ يوجدَ نظامٌ يحكم الجميع .

ولكن الآخرة يختلفَ الأمر فيها ؛ فلا مُلْكَ لأحدٍ غير الله ، بل إن الأعضاء نفسها لا تسير بإرادة أصحابها بل بإرادة الحق ، تلك الأعضاء التى كانت تخضع لمشيئتك فى الدنيا ؛ لا حُكْمَ لك عليها فى الآخرة ، بل ستكون شاهدة عليك .

فإن كان الله قد أعطاك القدرة على تحريك الأعضاء فى الدنيا ، فإنْ وجّهتها إلى مأمور الله ؛ فأنت من عباده[1] ، وإنْ لم تُوجهها إلى مطلوب الله ، فأنت من عبيده .

وبعد ذلك يُقدّم لك سبحانه الحيثية التى تُعزّز أمره بعبادته

(١) العباد : هم عباد الرحمن ، والعبيد كل الناس ، فكل عابد عَبْد وليس كل عبد عابداً ، وقد يَرْقى العبيد إلى مقامات العباد بالعمل الصالح .

وحده ، وأنْ لا إله غيره ؛ فإنه لم يطلب أن نعبده إلا بعد أنْ خلق لنا السماوات والأرض ؛ وكل الكون المُعَد لاستقبال الإنسان بالحق ؛ أى بالشيء الثابت ؛ والقانون الذى ليس فى اختيار أحد سواه سبحانه ، ويقول سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ (١) تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

أى : تنزَّه سبحانه عَمَّا يشركون معه من آلهة ، فلا أحدَ قد ساعده فى خَلْق الكون وإعداده ؛ فكيف تجعلون أنتم معه آلهة غيره ؟ وسبحانه مُنزَّه عن أنْ يكون معه آلهة أخرى ، وسبحانه قد خلق لنَا من قبل أن يخلقنا ؛ خلق السماوات والأرض وقدَّر الأرزاق ، ولو نظرتَ إلى خَلْقك أنت لوجدت العَالَم الكبير قد انطوى فيك ؛ وهو القائل :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]

وأنت مخلوق من ماذا ؟

ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ (٢) مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾

---

(١) بالحق : أى للدلالة على قدرته سبحانه ، وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة ، وأن يُحيي الخلق بعد الموت . [تفسير القرطبى ٣٧٩٢/٥] .

(٢) الخصيم : أى شديد الخصام . أى : مخاصم لله ولرسوله مبالغ فى إظهار خصومته وعداوته . [القاموس القويم ١٩٦/١] .

والنطفة التى نجىء منها ، وهى الحيوان المَنَوىّ الذى يتزاوج مع البويضة الموجودة فى رَحم المرأة فتنتج العلقة ، وسبحانه القائل :

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى[1] (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) ﴾ [القيامة]

بل إن القَذْفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الأنسال ما يكفى خَلْقَ الملايين ؛ ولا يمكن للعين المُجرَّدة أنْ ترى الحيوان المنوىّ الواحد نظراً لدقَّته المتناهية .

وهذه الدقّة المُتناهية لا يمكن أنْ تُرى إلا بالمجاهر المُكبّرة ، ومطمور فى هذا الحيوان المنوىّ كُل الخصائص التى تتحد مع الخصائص المَطْمورة فى بُويْضة المرأة ليتكوّن الإنسان .

وقد صدق العقاد ـ يرحمه الله ـ حين قال : « إن نصف كستبان الخياطة لو مُلِىء بالحيوانات المنوية لَوُلِد منه أنسال تتساوى مع تعداد البشر كلهم » .

وقد شاء الحق سبحانه ألا ينفُذَ إلى البويضة إلا الحيوانُ المنوىّ القوى ؛ ليُؤكِّد لنا أنْ لا بقاءَ إلا للأصلح ، فإنْ كان الحيوان المنوىّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ؛ وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذَّكَر جاء المولود ذكراً .

وأنت ترى مثْل ذلك فى النبات ؛ فأوَّل حبّة قمح كانت مثل آدم كأول إنسان بالطريقة التى نعرفها ؛ وفى تلك الحبّة الأولى أوجد

---

(١) أى : أيحسب الإنسان أن يترك مهملاً غير مأمور وغير منهىّ . [لسان العرب ـ مادة : سدا] .

الحق سبحانه مضمون كل حبوب القمح من بعد ذلك ، وإلى أنْ تقومَ الساعة ، وتلك عظمةُ الحق سبحانه فى الخَلْق .

وقد أوضح لنا الحق سبحانه فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحل خَلْق الإنسان ؛ فهو :

﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧﴾ [السجدة]

وهو من نطفة ، ومن علقة ، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة[1] .

والحيوان المنوىّ المُسمّى « نُطْفة » هو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شأنٌ بهذا التحديد ، وكأن فى ذلك إشارةً إلى مهمة المرأة كسكَن ؛ لأن البُويْضة تتلقّى الحيوان المنوىّ وتحتضنه ؛ ليكتمل النمو إلى أنْ يصيرَ كائناً بشرياً :

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭﴾ [المؤمنون]

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ㊱ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ㊲ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً .. ㊳﴾ [القيامة]

والعلقة جاء اسمها من مهمتها ، حيث تتعلق بجدار الرَّحِم كما أثبت العلْم المعاصر ، ويقول سبحانه :

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. ⑭﴾ [المؤمنون]

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ⑤﴾ [الحج] .

والمُضْغة هى الشىء المَمْضُوغ ؛ ثم يَصِف سبحانه المضغة بأنها :

﴿ مُخَلَّقَةٍ[١] وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ⑤ ﴾ [الحج]

ولقائل أن يتساءل : نحن نفهم أن المُضْغة المُخلّقة فيها ما يمكن أن يصير عيناً أو ذراعاً ؛ ولكن ماذا عن غير المُخلّقة ؟

ونقول : إنها رصيد احتياطىّ لصيانة الجسم ، فإذا كنتَ أيها المخلوق حين تقوم ببناء بَيْت فأنت تشترى بعضاً من الأشياء الزائدة من الأدوات الصحية - على سبيل المثال - تحسُّباً لما قد يطرأ من أحداث تحتاج فيها إلى قطع غيار ؛ فما بالنا بالحق الذى خلق الإنسان ؟

لقد جعل الله تلك المُضْغة غير المُخلّقة[٢] رصيداً لصيانة ، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروف ؛ وتكون زائدة فى الجسم وكأنها مخزنٌ لقطع الغيار .

والمثل هو الجروح التى تصيب الإنسان ، ثم يتركها ليعالجها الجسمُ بنفسه ، نجدها تلتئم دون أنْ تتركَ نَدْبة[٣] أو علامة ، ذلك أنه قد تَمَّ علاجها من الصيدلية الداخلية التى أودعها الحق سبحانه فى الجسم نفسه .

---

(١) مخلقة : أى مُشكّلة ومُصوّرة على هيئة طفل . وغير مخلقة أى : غير مشكّلة ، أى غير تامة التصوير . [القاموس القويم ١/٢٠٧] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٠٦) : « إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك ، يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط » .

(٣) الندبة : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد . [لسان العرب - مادة : ندب] .

والمفاجأة هى أن هذا الإنسانَ المخلوق لله :

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ④﴾ [النحل]

ويتمرَّد على خالقه ، بل وينكر بعضٌ من الخَلْق أن هناك إلهاً ؛ متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يجادلونه . والخصيم هو الذى يُجادل ويُنكِر الحقائق ؛ فإذا حدَّث بشيء غيبى ، يحاول أنْ يدحضَ معقوليته .

ويقول سبحانه فى سورة يس :

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ⑰⑰﴾ [يس]

وقد يكون من المقبول أن تكون خَصْماً لمساويك ؛ ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاك فعَدَلك ، وفى أىِّ صورة ما شاء ركَّبك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤﴾

والدِّفْءُ هو الحرارة للمبرود ، تماماً مثلما نعطى المحرور برودة، وهذا ما يفعله تكييف الهواء فى المنازل الحديثة . ونجد الحق سبحانه هنا قد تكلَّم عن الدفء ولم يتكلم عن البرد ، ذلك أن المقابل معلوم ، وهو فى آية أخرى يقول :

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. ⑧①﴾ [النحل]

---

(١) السرابيل : جمع سربال ، وهو ما يُلبس من قميص أو درع . [القاموس القويم ١/٣٠٨].

وهذا ما يحدث عندما نسير فى الشمس الحارة ؛ فنضع مظلة فوق رؤوسنا لتقينا حرارة الشمس الزاعقة الشديدة . ونحن فى الشتاء نلبس قلنسوة أى : نلفّ شيئاً حول رؤوسنا ، وهكذا نعلم أن اللباس يفعل الشيء ومقابله ، بشرط أن يختار الإنسانُ اللباسَ المناسب للجوِّ المناسب .

وفى الأنعام منافع كثيرة ؛ فنحن نشرب لبنها ، ونصنع منه الجُبْن والسمن ؛ ونجزّ الصوف لنغزل وننسج منه ملابس صوفية ، وتحمل الأثقال ، ونستفيد من ذريتها ؛ وكذلك نأكل لحومها .

و نحن نعلم أن الأنعام قد جاء تفصيلها فى موقع آخر حين قال الحق سبحانه :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ .. (١٤٣)﴾ [الأنعام]

وهى الضَّأن والمَعْز والإبل والبقر .

ونعلم أن الدِّفْءَ يأتى من الصُّوف والوَبَر والشَّعْر ، ومَنْ يلاحظ شعر المَعْز يجد كل شَعْرة بمفردها ؛ لكن الوبر الذى نجزه من الجمل يكون مُلبداً ؛ وهذا دليل على دقّة فَتْلته ، أما الصوف فكل شعرة منه أنبوبة أسطوانية قَلْبها فارغ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



(١) الجمال : الحُسْن ، وما يُتجمّل به ويتزين . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٩٥) : « جمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئى بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها » .

وهنا نجد أن الحق سبحانه قد أعطانا الترف أيضاً بجانب الضروريات ، فالدِّفْء والمنافع والأكل ضروريات للحياة ، أما الجَمال فهو من تَرَف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين ، فيتحقق السرور في النفس . والدِّفْء والمنافع والأكل هي أمور خاصة لمَنْ يملك الأنعام ؛ أما الجمال فمشاع عَامٌّ للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ؛ أو البقرة المَزْهُوة بالصحة ؛ فأنت ترى نعمة الله التي خلقها لتسُرَّ الناظر إليها .

ونلحظ هذا الجمال في لحظات سروح البهائم ولحظات رواحها . ونقول في الريف « سرحت البهائم » أي : خرجتْ من الحظائر لترعى وتأكل . ونلحظ أن الحق سبحانه قد قدَّم الرَّواح أي العودة إلى الحظائر عن السُّروح ؛ لأن البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أنْ ترعى تكون بطونُها ممتلئةً وضُروعها رابية[1] حافلة باللبن ؛ فيسعد مَنْ يراها حتى قبل أنْ يطعمَ من ألبانها .

ومَنْ يخرج ببهائمه في الصباح من بيته ، ويصحبها من زرائبها إلى الحقل ، يجد جمالاً مع هيبة ومنعة مع أصوات تحقق للرجل المالك الهيبة ، ومَنْ لا يملك يمكن أنْ يشاهدَ جمال تلك الأنعام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :


﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ[2] إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾

---

(١) ربا الشيء يربو : زاد ونما . وأربيته : نميته . [لسان العرب ـ مادة : ربا] .

(٢) الثقل : الحمل الثقيل . والجمع أثقال مثل حِمْل وأحمال . [لسان العرب ـ مادة : ثقل] . فالأثقال : الأحمال الثقيلة .

ونعلم أن الإنسانَ فى حياته بين أمرين ؛ إما ظَاعن أى : مسافر . وإما مـقيم . وفى حـالة المقـيم ، فالأنعـام تُحقق له الدِّفْء والـطعام والمَلْبس . وعادةً ما يكتفى متوسطُ الحال بأنْ يستقرّ فى مكان إقامته وكذلك الفقير .

أما الـمُقْـتدر الغنىّ ؛ فـأنت تجده يومـاً فى القاهرة ، وآخـر فى الإسكندرية ، أو طنطا ، وقـد يسافر إلى الخـارج ، وكلُّ ذلك ميـسور فى زمن المـواصلات الحـديثة . وقـديمـاً كانت وسـائل المواصـلات شاقة ، ولا يقدر على السفر إلا مَنْ كانت لديه إبل صحيحة أو خيول قوية ، أمـا مَنْ لم يكن يملك إلا حمـاراً أعجف[1] فهو لا يفكر إلا فى المسافات القصيرة .

ولذلك نجد القرآن حين تكلم عن أهل سبأ يقول :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ[2] .. ⁽١٩⁾﴾ [سبأ]

وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خَيْل ووسائل سفر من دوابّ سليمة وقـوية ، تُهيِّيء السفر المريح الـذى ينمُّ عن العِزّ والقوة والثراء .

وقوله الحق :

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ .. ⁽٧⁾﴾ [النحل]

يعنى وضـع ما يَثْـقل على ما يُثْقَل ، ولذلك فنحن لا نجـد إنسانـاً

---

(١) الأعجف : الهـزيل من سوء التغـذية . والعجف : غلظ العظام وعـراؤها من اللحم . [لسان العرب ـ مادة : عجف] .

(٢) وذلك أن الله تعالى قال : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ⁽١٨⁾﴾ [سبأ] .

يحمل دابتـه ؛ بل نجد مَنْ يحمل أثقـاله على الدابة ليُخفِّف عن نفسه حَمْل أوزانٍ لا يقدر عليها .

ونعلم أن الوزن يتبع الكثافة ؛ كما أن الحجمَ يتبع المساحة ؛ فحين تنظر إلى كيلوجرام من الحديد وكيلوجرام من القطن ، فأنت تجد أن حجم كيلوجرام القطن أكبرُ من حجم كيلوجرام الحديد ؛ لأن كثافة الحديد مطمورة فيه ، أما نفاشات القطن فهى التى تجعله يحتاج حيزاً أكبر من المساحة .

ويتابع الحق سبحانه قوله فى الآية الكريمة :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ .. ⑦ ﴾

[النحل]

ومَنْ يفتش فى أساليب القرآن من المستشرقين قد يقول : « إن عَجُزَ الآية غَيْر متفق مع صَدْرها » .

ونقول لمثل صاحب هذا القول : أنت لم تفطن إلى المنّة التى يمتنُّ بها الله على خَلْقه ، فهم لم يكونوا بالغين لهذا البلد دون أثقالٍ إلا بمشقّة ؛ فما بالنا بثِقَل المشقة حين تكون معهم أثقال من بضائع ومتاع ؟

إنها نعمة كبيرة أنْ يجدوا ما يحملون عليه أثقالهم وأنفسهم ليصلوا إلى حيث يريدون .

وكلمة ﴿ بِشِقِّ ﴾ [النحل] مصدرها شَق وهو الصَّدْع بين شيئين ؛ ويعنى عَزْل متصلين ؛ وسبحانه هو القائل :

﴿ فَاصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ .. ⑨٤ ﴾ [الحجر]

(١) صدع بالأمر : جهر به فى قوة كأنه يشق جدار الصمت والسكون . [القاموس القويم ١/٣٧١] .

وهناك « شَق » وهو الجهد ، و« شقَّة » . والإنسان كما نعلم هو بين ثلاث حالات : إمّا نائم ؛ لذلك لا يحتاج إلى طاقة كبيرة تحفظ له حياته ؛ وأيضاً وهو مُتيقّظ فأجهزته لا تحتاج إلى طاقة كبيرة ؛ بل تحتاج إلى طاقة مُتوسِّطة لتعملَ ؛ أما إنْ كان يحمل أشياءَ ثقيلةً فالإنسان يحتاج إلى طاقة أكبر لتعمل أجهزته .

وكذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا[1] قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا[2] لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢)﴾ [التوبة]

والمعنىَ هنا بالشُّقة هى المسافة التى يشقُّ قطعُها ، ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾ [النحل]

والصفتان هنا هما الرأفة والرحمة ، وكل منهما مناسب لمَا جاء بالآية ؛ فالربُّ هو المُتولِّى التربية والمَدَد ، وأىُّ رحلة لها مَقْصِد ، وأىُّ رحلة هى للاستثمار ، أو الاعتبار ، أو للاثنين معاً .

فإن كانت رحلةَ استثمار فدابّتُك يجب أن تكون قويةً لتحمل ما معك من أثقال ، وتحمل عليها ما سوف تعود به من بضائع .

وإنْ كانت الرحلةُ للاعتبار فأنت تزيل بهذا السفر ألم عدم المعرفة

---

(١) عرض الدنيا : ما كان من مال ، قل أو كثر . والعرض : متاع الدنيا وحطامها . [لسان العرب ـ مادة : عرض] .

(٢) السفر القاصد : السهل الواضح المعروف هدفه . قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ .. (٤٢)﴾ [التوبة] لكن السفر إلى تبوك كان عسيراً فى وقت العسرة ، وكان شاقاً وغير معروف الهدف . ولهذا تخلف المنافقون . [القاموس القويم ٢/١١٨] .

والرغبة فى الوصول إلى المكان الذى قصدته .

وهكذا تجد الرأفةَ مناسبةً لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقَّفَ بعضٌ من العلماء عند مَقْصد الرحلة ؛ كأن تكون مسافراً للاتجار أو أن تكونَ مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفرٌ بالاختيار ؛ وهناك سفرِ اضطرارى ؛ كالسفر الضرورى إلى الحج مرة فى العمر .

والحق سبحانه يزيل ألم الحَمْل الثقيل ، وبذلك تتحقق رأفته ؛ وهو رحيم لأنه حقَّق لكم أُمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ[1] وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التى نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا فى هذه الآية الأنعام التى نستخدمها للتنقّل أو للزينة ؛ ولا نأكل لحومها[2] وهى الخَيْل والبغَال والحمير ؛ ويُذكِّرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة ؛ ذلك أن الناس تتزيَّن بما تَرْكب ؛

(١) البغال : جمع بغْل . وهو ابن الفرس من الحمار وهو لا يلد . فالشأن في البغل العقم . وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولُّدها منهما . [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٠٠) : « سئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب . وقرأ الآية التى قبلها : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النحل] ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هى مباحة . قلت : الصحيح الذى يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل » .

تماماً كما يفخر أبناءُ عصرنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة .

ونَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت الناس فى المراتب ؛ فكلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لتركبه ؛ فالخَيْل للسادة والفرْسان والأغنياء ؛ ومَنْ هم أقلُّ يركبون البَغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفى لشراء الحصان أو البَغْل ؛ فيمكنه أنْ يشترىَ لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانٌ الثلاثةَ ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها ؛ وقد يملك ثالثٌ رُكوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أنْ يستأجرَ ولو رُكوبة من أىِّ نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قلّةً أو كثرةً ، وإلا لو تساوى الناس فى الرزق ، فَمن الذى يقوم بالأعمال التى نُسمِّيها نحن ـ بالخطأ ـ أعمالاً دُونية ، مَنْ يكنس الشوارع ، ومَنْ يحمل الطُّوب للبناء ، ومَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات ؟

وكما نرى فكلُّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبةُ الناس فى الرزق لَمَا حلَتْ مثل تلك الأعمال ، وراقتْ فى عيون مَنْ يُمارسونها ، ذلك أنها تَقيهم شرَّ السُّؤال .

ولَوْلا أن مَنْ يعمل فى تلك الأعمال له بطنٌ تريد أنْ تمتلىء بالطعام ، وأولاد يريدون أنْ يأكلوا ؛ لَمَا ذهب إلى مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرتَ إلى أفقر إنسان فى الكون لوجدتَ فى حياته فترة حقَّق فيها بعضاً من أحلامه .

وقد نجد إنساناً يكدُّ عَشْر سنين ؛ ويرتاح بقية عمره ؛ ونجد مَنْ يكدّ عشرين عاماً فيُريح نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُريح أولاده وأحفاده من بعده . والمهم هو قيمة

ما يُتقنه ، وأن يرضَى بقدر الله فيه ، فيعطيه الله ما دام قد قَبِل قدره فيه .

وأنت إنْ نظرتَ إلى مَنْ فاء الله عليهم بالغنَى والتَّرف ستجدهم فى بداية حياتهم قد كَدُّوا وتَعبوا ورَضُوا بقدر الله فيهم ، ولم يحقدوا على أحد ، نجده سبحانه يهديهم طمأنينةً وراحةَ بالٍ .

وشاء سبحانه أنْ يُنوِّع فى مُسْتويات حياة البشر كَيْلا يستنكفَ أحدٌ من خدمة أحد ما دام يحتاج خدماته .

ونجد النصّ التعبيرى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها هو خَيْل وبِغَال وحمير ؛ وقد جعل الحق سبحانه البغال فى الوسط ؛ لأنها ليست جنساً بل تأتى من جنسين مختلفين .

ويُنبِّهنا الحق سبحانه فى آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المطَاف ؛ بل هناك ما هو أكثر ، فقال :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]

وجعل الحق سبحانه البُراق خادماً لسيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المُعْجزات قد حدثتْ لأنبياء ؛ فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثير من عربات تجرُّها الجِيَاد إلى سيارات وقطارات وطائرات .

وما زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتنى الخَيْل ويُربِّيها ويُروِّضها ويجريّها لجمال منظرها .

وإذا كانت تلك الوسائلُ من المواصلات التى كانت تحمل عنّا